اللغة الولوفية بالسينغال ...
أصبحت بفضل القرآن أداة تثقيف وتربية

بقلم فضيلة شيخ الاسلام الحاج ابراهيم نياس
سنغال (مدينة كاولاخ)

تحية لكتب تنسيق التعريب فى العالم العربى ، وواها له ! فهو جهاز نشيط دائب الحركة ، ومن اهم فروع الجامعة العربية . واننى لآمل ان يتوفر لهذا المكتب كل الوسائل اللازمة لاداء رسالته الكبيرة الضرورية ، حتى نرى شجرة التعريب فى مستقبل قريب ، وهى ثابتة الاصل ، باسقة الفروع ، وارفة الظل ، فيكتمل للامة العربية ملامحها ، وتتسق قسماتها ، وتستعيد الضاد هيبتها ، وتصبح الفصحى هي الرباط الوثيق لسائر اقطار هذه الامة الكبيرة المنتشرة فيما بين المحيط والخليج ..

واننى فى الواقع لكبير الاهتمام بنشاط مكتب التنسيق .. هذا ، خصوصا منذ عامين حيث اتيحت لى فى صيف عام 1966 فرصة الاجتماع بمديره المسؤول الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله الذى زودنى ـ جازاه الله خيرا ـ بمجموعة طيبة من مطبوعات المكتب ، اطلعت فيها على ابحاث مفيدة ممتعة ومطمئنة . ولذلك كله رحبت ـ مسرورا ـ برسالة المكتب .. التى تضمنت نص الاستفتاء الخاص بعلاقة الاسلام باللغة العربية ، والذى يدعو اهل العناية بهذا الموضوع الى الادلاء بآرائهم فيما اذا كان هناك تلازم او ترابط بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية ؟ وهل الوعي الاسلامى يقوى ويضعف تبعا لما يعترى لغة الضاد من قوة او ضعف فى الاقطار الاسلامية ..؟

وانا ارى بكل صراحة : ان اللغة العربية ، على عظمتها ورغم خصائصها التى لا تنكر ... ما كانت لتخرج من جزيرتها لولا هذا الحدث الضخم الذى تم ـ بفضل الله ـ منذ اربعة عشر قرنا .. وهو نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين .. ذلك الكتاب العزيز الذى سارت العربية فى موكبه حيثما اتجه فأصبحت بسببه لغة عالمية يعنى بها ويقدسها جميع المسلمين فى المشارق والمغارب. واذكر اننى قد قمت سنة 1963 برحلة من سنغال بغرب افريقيا الى الصين بأقصى الشرق فما حللت ببلد الا ووجدت فيه من يكلمنى بالعربية فصيحة بليغة ويحيينى بتحية الاسلام !

لا جرم انه لولا هذا القرآن الكريم لبقيت العربية لغة اقليمية محصورة . واذا كتب لادبها ان ينمو ويتطور فسوف يكون ـ على احسن تقدير ـ على مستوى ادب جارتها الفارسية.. فاللغة الفارسية لغة ادب وفن وفلسفة منذ قديم ـ ولكنها ظلت لغة اقليمية قل من يعرفها من غير ابنائها . واما لغة

الضاد فقد انطلقت من اسار الاقليمية كما قلت منذ ان جعلها الله ـ جلت قدرته ـ لغة التنـــزيل ، ولسان الوحي ، واساس الاسلام ، وترجمان عباداته ، ورباط الروح .. فهي ـ والحالة هذه ـ لغة تستمد شرفها ، وتستقى روافدها اساسا من الاسلام . ولا تضمن لنفسها بقاء ولا خلودا الا بهذا الاسلام. وهذه حقيقة بدهية لا تحتاج الى برهان اللهم الا اذا احتاج النهار الى دليل .

هذا ـ وان اختيار العربية لغة لكتاب الله انما هو حلقة فى سلسلة اختيارات بديعة هي بعض فضل الله علينا وله المنة ! فقد اختار لنـا الأسلام ورضيه لنا دينا ، واختار لهذا الدين كل ما له علاقة بانتشاره فى العالمين ، ولا غرو فهو تعالى « اعلم حيث يجعل رسالته» واعلم بما يكفل لهذه الرسالة النجـــاح والتوفيق . فقد اختار من البشر محمدا بن عبد الله صلى الله عليه وسلم حاملا لهذه الرسالة، وهو اكمل الناس خلقا وخلقا ، واشرفهم حسبا ونسبا . واختار لها من البقاع الحرمين الشريفين : منطقة حماها بقدرتـه من الفساد الذى ظهر فى البر والبحر يومئذ . وجعل لاهلها استعدادا لحمل رسالة الاسـلام . وانـزل قرآنه الكريم بلسان عربي مبيـن .. واختـار لهـا عصر النبى الذى عاش فيه خير القـرون ، وهـم صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يـزال يختار لهذا الدين دعاة هداة فى كل زمان ومكان. وهذه عقيدة كل مسلم موفق ، وكم جرت بها اقلام اهل العلم عبر العصور للبرهنة على ان ارتباط اللغـة العربية بالاسلام مسالة بدهية، وحقيقة سافرة يجب ان لا تعزب عن الاذهان : فقد ذكر العلامة اللغوى ابو منصور الثعالبى فى مقدمة كتابه الجليـل فقـه اللغة .. « بأن من احب الله احب رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومن احب النبي العربي احب العرب ، ومن احب العرب احب اللغة العربية التى بها نزل افضل الكتب ، على افضل العجم والعرب ، ومن احب العربية عني بها ، وثابـر عليهـا وصـرف همته اليها » .. «والاقبال عليها من الديانة. اذ هى اداة العلم ، ومفتاح التفقه فى الدين ، وسبب اصلاح المعاش والمعاد . ولو لم يكن فى الاحاطة بخصائصها ، والوقوف على مجاريها ومصارفـها ، والتبـحر فى جلائلها ودقائقها الا قوة التيقـن فى معرفة اعجـاز القرآن وزيادة البصيرة فى **اثبات النبوة الذى هـو** عمدة الايمان لكفى بهما فضلا يحسن اثـره ، ويطيب فى الدارين ثمره » .

والوعي الدينى ولا شك يقـوى ويضعـف تبعـا لامتداد لغة القرآن او انكماشها ، وحسب قوتهـا او ضعفها فى البلاد الاسلاميـة مبدئيـا . اذ مـن المستحيل بداهة الاستغناء بترجمة معـانى القـرآن وتعاليمه عن تناولها مباشرة باللغة العربية .. بل ان وظيفة الترجمة فى حد ذاتها تفرض وجود مترجمين فقهاء للغة التنزيل .. ذلك « لان الاسلوب العـربى بخصائصه الثابتة جزء لا ينفصم عن جوهر القرآن ، ولا يمكن التجاوز عنه بتة » كما يقول الشيخ محمد الغـزالى .. فلابـد اذا لنشر الـوعي الاسلامـى الحقيقى من نشر اللغة العربية حتى يتحمل الرسالة على الاقل دعاة مستعربون يجيدون العربية ويتضلعون فى آدابها ، ويتعمقون فى اسرار البلاغة وفنـون الكتابة . واعتقد ان بوسع كل مسلم ان يلج العروبة من هذا الباب الواسع الذى فتحـه الرسول عليـه السلام على مصراعيه : فقد روى الحافظ بن عساكر قال : « جاء قيس بن مطاطية الى حلقـة فيـها سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى ، فقال : هؤلاء الاوس والخزرج قد قاموا بنصرة هـذا الرجل، (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) فما بال هذا وهذا (مشيرا الى غير العرب من الجالسين) فقام اليه معاذ بن جبل رضى الله عنه فاخذ بتلابيبه ثم اتى النبى صلى الله عليه وسلم فاخبره بمقـاله .. فقام النبى صلى الله عليه وسلم مغضبا يجـر رداءه حتى اتى المسجد ، ثم نودي : الصلاة جامعة فاجتمـع الناس فخطبهم قائلا « ياايـها النـاس ان الـرب واحد ، وان الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من اب ولا ام ، **وانما هي اللسان فمن تكلم بالعربيـة فهو عربى**)». فالرسول عليـه الصلاة والسلام انما يرشد بهذه الكلمة الى حقيقة ارتباط الوعى الاسلامى بفقه اللغة العربية ، ويشير الى حقيقة اخرى وهى **ان العربية ـ وهى لغة القرآن ـ يجب ان تتحرر من الاقليمية والعنصرية الضيقة** ، لتصبح اداة تفاهم بين جميع المسلمين على اختلاف اجناسهم والوانهم ... واذا راجعنا التراث الاسلامى فى سـائر عصوره راينا ان المسلمين قد لبوا هذا النداء المحمدى .. فنبغ كثير من غير العرب وبرزوا فى شتى فنون العلم والمعرفة . ومن منا ـ انصار لغة القرآن ـ لا يعرف ولا يعجب بأمثال الشيرازى ، والسندى ، والحلبى ، والزنجانى ، والجبـرتى والافغـانى والاشمـونى ، والقلقشندى ، والصقلى ، والقيـروانى والمـراكشى والصنهاجى ، والقرطبى ، والفيروزابادى، والبخارى وغيرهم من سلفنا الصالح الذين تدل نسبة كل منهم

على اصله غير العربى . مع أن الفصحى تتهلل عند ذكرهم . ذلك لان **العربية** لم تعد لغة اقليمية محصورة وانما هى **لغة عالمية بفضل القرآن الكريم** الذى يومن به ويقدسه المسلم حيثما كان . وهذا من اهم اسباب القوة فى هذا الدين ، وقد اثر عن السلف كلم طيب يصور الحق كل الحق وهو قولهم الاسلام بالعرب يبقى ، وبغير العرب يقوى . ولا غرو فالعرب مادة الاسلام ، وعزهم عز الاسلام، وذلهم ذله كما جاء فى الاثر . وقد فطن اعداء الاسلام واعداء الامة العربية لاهمية الربط بين العروبة والاسلام فراحوا يشوهون جمال اللغة العربية ، ويهولون من صعوبة قواعدها الى حد الدعوة الى الغاء الاعراب ، وتغيير حروف الكتابة العربية ، وانا اتحدى هؤلاء المهولين بقوم من المسلمين غير العرب اعرفهم فى عدة اقطار، قد برعوا فى اللغة العربية وآدابها براعة تامة بحيث انهم يستمعون بالدهشة والاستغراب الى كل هذا الضجيج الذى يثار حول اللغة العربية المظلومة ..

ولكن ذلك كله متوقع ممن يريدون استضعاف الامة العربية ، وعزلها عن الامة الاسلامية .. وانما الداهية الدهياء هى ما يلاحظ بكل اسف من وجود بعض من مثقفى العرب ، يساندون حملة التشهير بلغة التنزيل من حيث يشعرون او من حيث لا يشعرون . هؤلاء المثقفون شرذمة قليلون فتنتهم الحضارة الغربية ، فأورثتهم امراضا واغراضا نلمس آثارها فى الصحف السيارة وفيما تنشر لهم « دور النشر » من ابحاث ومؤلفات ، وهو اتجاه خطير ليس على الدين فحسب، بل على الامة العربية عموما ذلك « لان الذين يتعلقون اللغات الاجنبية ــ كما يقرر الرافعى فى كتابه وحي القلم ــ ينزعون الى اهلها بطبيعة التعلق ، ان لم تكن عصبيتهم للغتهم قوية مستحكمة من قبل الدين او القومية ، فتراهم اذا وهنت فيهم هذه العصبية يخجلون من قوميتهم ويتبرأون من سلفهم، وينسلخون من تاريخهم ، وتقوم بأنفسهم الكراهة للغتهم وآداب لغتهم ، ولقومهم واشياء قومهم . فلا يستطيع وطنهم ان يوحي اليهم بأسرار روحه ، اذ لا يوافق منهم استجابة فى الطبيعة ، وينقادون بالحب لغيره ، فيتجاوزونه بالحب وهم فيه ، ويرثون دماءهم من اهلهم ، ثم تكون العواطف فى هذه الدماء للاجنبى ، ومن ثم تصبح عندهم قيمة الاشياء بمصدرها لا بنفسها ، وبالخيال المتوهم فيها ، لا بالحقيقة التى تحملها ». وهذه الذلة اورثوها من ذل لغتهم وهوانها عندهم ، ولهذا السر « ترى المستعمر يفرض لغته فرضا على الامة المستعمرة ويركبهم بها ، ويشعرهم عظمته فيها ، ويستلحقهم من ناحيتها فيحكم عليهم احكاما ثلاثة فى عمل واحد : اما الاول فحبس لغتهم فى لغته سجنا مؤبدا واما الثانى فالحكم على ماضيهم بالقتل محوا ونسيانا ، واما الثالث فتقييد مستقبلهم فى الاغلال التى يصنعها ، فأمرهم من بعدها لامره تبع »

وبالنسبة لتاثير لغات المسلمين فى العربية . وتأثرها بها فان لغاتنا معشر المسلمين فى سنغال مثلا لم تؤثر فى نطقنا العربى وفى تعابيرنا العربية شيئا ابدا اللهم الا آثار عجمة تظهر عند البعض نتيجة لعدم اتقانهم اخراج الحروف لاسباب تاريخية وسياسية لن اتعرض لها فى هذا المقال .. ولكن هذه **اللغات تاثرت الى حد بعيد بلغة القرآن ، فلغتنا الولوفية مثلا قد اصبحت بفضل القرآن اداة تثقيف وتربية جيدة ..** وقد تسربت فيها مفردات عربية (اسلامية) كثيرة . وكثير من شعرائنا بهذه اللغة قد تقيدوا باوزان البحور العربية ، وراعوا فى اشعارهم الكثيرة المتعددة المواضيع : احكام العروض العربى .. اضف الى ذلك كله عقليتنا التى اصطبغت بالصبغة القرآنية وتأثرت بما فى القرآن الكريم من أساليب التعبير ، ووجوه التصوير والتصرف فى افانين الكلام .. ثم يأتى الحرف العربى الذى اتخذه المسلم السنغالى مثل اخيه الافريقى منذ قرون لتدوين ما يريد بلغته الولوفية .. وقد ظهرت اخيرا بادرة طيبة تستحق التشجيع وهى ان بعض **المثقفين المسلمين من شبابنا قد جنحوا الى وضع مؤلفات بلغة وولوف مستعملين الحروف العربية ...** ولبعض هذه المؤلفات قيمة علمية وفكرية كما لو كتبت باحدى اللغات الحية تقريبا .. وتلك ولا شك خطوة اخرى نحو التقرب الى لغة القرآن ، ووسيلة ناجحة للاسراع بحملة محو الامية .

وقد اذهب الى ابعد من ذلك لاقول ان **سنغال** ــ كغيره من الاقطار الافريقية ــ **لم يحطم قيود الامية الا بفضل القرآن** العربى المبين ، وهى حقيقة تاريخية لا ريب فيها . فاللغة الفرنسية مثلا ــ وهي اليوم اللغة الرسمية لجمهورية سنغال ــ يرجع تاريخ بداية نشرها عندنا الى مائة وخمسين عاما تقريبا ، فقد كان السيد جاندار اول مدرس انتدبته الحكومة الفرنسية لافتتاح اول مدرسة فرنسية فى **سين لويس** بسنغال، وهى الاولى فى عموم غرب افريقيا ايضا وذلك فى عام 1816 م. بينما يسجل مؤرخ هذه المدرسة الاستاذ جوزيف غوشى فى كتابه : ما يدل

على تقدير الحاكم الفرنسى مسيو روجى لمنهج التعليم الذى وجدوا عليه المسلمين السنغاليين حتى فى قراهم وان ما كانت ادارة المدرسة الفرنسية تعتبره منهجا مبتكرا لتسهيل تعليم الاولاد انما هو مألوف ومطبق عمليا فى سنغال قبل وصول الفرنسيين . ولا غرو فى ذلك ابدا اذا تذكر القارىء ان القرآن الكريم قد دخل بلاد السودان الغربى (على حد تعبير المؤرخين العرب) منذ عهود سحيقة .

انها اذا **لغة القرآن** التى يتطلع اليها المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها ، **وهى اللغة الثرية ذات القابلية العجيبة للتطور، وهى الوعاء الامين للتراث الاسلامى والعربى** ، وهى اللغة التى وصفها البروفسور هنرى باستيد استاذ الحضارة المغربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس بانها «**اكثر لغات الوجود روحانية** » (لوموند 6 ـ 8 ـ 66) حتى ان بعض القسيسين فى بيروت يخططون الآن بجد لاحلالها محل اللغة اللاتينية فى مجال تثقيف الشبيبة وتربيتهم الروحية .. واخيرا هى **اللغة القومية لست دول افريقية** .. فرجائى ان تكون مكانتها فى بلدى وفى سائر الاقطار الاسلامية مكانة سامية. وان تولى العناية اللازمة فى سائر الاوساط. واننى بهذه المناسبة لاهيب بالحكومات العربية والاسلامية ، وبالهيئات والمؤسسات الاسلامية ، وبأهل اليسار من الافراد ، وباصحاب الفكر وخبراء التربية والتعليم ان يتعاونوا لحماية لغة القرآن ونشرها ، وتيسير تعليمها كما فعلت الامم «القوية» بلغاتها ، فان فى سخاء هذه وتضحياتها لعبرة لاولى الالباب . ولله در شاعر النيل حافظ ابراهيم اذ يقول على لسان اللغة العربية :

... وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف اضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق اسماء لمخترعات

انا البحر فى احشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتى

فياويحكم ابلى وتبلى محاسنى
ومنكم وان عز الدواء اساتى

فلا تكلونى للزمان فاننى
اخاف عليكم ان تحين وفاتى

ارى لرجال الغرب عزا ومنعة
وكم عز اقوام بعز لغات

اتوا اهلهم بالمعجزات تفننا
فياليتكم تاتون بالكلمات

ايطربكم من جانب الغرب ناعب
ينادى بوادي فى ربيع حياتى

ولو تزجرون الطير يوما علمتم
بما تحته من عثرة وشتات

سقى الله فى بطن الجزيرة اعظما
يعز عليها ان تلين قناتى

حفظن ودادى فى البلى وحفظته
لهن بقلب دائم الحسرات

وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق
حياء بتلك الاعظم النخرات ...

ايهجرنى قومى عفا الله عنهم
الى لغة لم تتصل برواة ..